Al Jinan الجنان

Volume 6 Article 8

2014

هل نحن بحاجة إلى علم الأمثال ؟

Mohammad Al-Terek
Jinan University, dr-m-terek@hotmail.com

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan

Part of the Islamic Studies Commons

Recommended Citation

Al-Terek, Mohammad (2014) "هل نحن بحاجة إلى علم الأمثال ؟," *Al Jinan الجنان*: Vol. 6 , Article 8.
Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan/vol6/iss1/8

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Al Jinan الجنان by an authorized editor. The journal is hosted on Digital Commons, an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aaru.edu.jo, marah@aaru.edu.jo, u.murad@aaru.edu.jo.

الدكتور محمد الترك
أستاذ التفسير وعلوم القرآن – جامعة الجنان

هل نحن بحاجة الى عِلْمِ الأمثال؟

من أَوجُهِ القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه، ضربُ الأمثال للناس، قال تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل لعلهم يتذكَّرون﴾[1].

والمثل – كما ذكر المبرد «مأخوذ من المثال وهو قول سائر يُشبه به حال الثاني بالأول»، وهو مشتق من المثول وهو الانتصاب، فقولهم (مثل بين يديه) اذا انتصب، ويقال عن المريض اذا بريء من علته تماثل للشفاء، أي أصبح مثل الصحيح، أو أنه نهض من فراشه وانتصب، والأماثل: يقال لمن هم أشبه بالأفاضل وأقرب الى الخير، ومثل الشيء بالشيء: سوَّاه وشبهه به، وجعله مثله وعلى مثاله، وفي الحديث: «أشد الناسِ بلاءً، الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل» أي الأشرفُ فالأشرفُ، والأعلى فالأعلى، في الرتبة والمنزلة، يقال :هذا أمثل من هذا، أي أفضلُ وأدنى إلى الخير «وقيل: إنما سُمي مثلاً لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدا، يتأسى به، ويعظ ويأمر ويزجر»

وقد يُستعار المثل للحال أو القصة اذا كان لها شأنٌ وغرابة، والصفة، مثل قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾[2] أي صفة الجنة، وهو عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، «وذلك أنَّ الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشَّبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط، والمُساوي يقال فيما يساوي في الكمية فقط ، والشَّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط ، والمَثل عامٌّ في جميع ذلك»

تعريفه:

هناك عدَّةُ تعريفات للمَثَل عند العلماء، فقد عُرّف أنّه «عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيءٍ آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الآخر و يصوّره»،

١- (سورة الزّمر:٢٧)

٢- (سورة محمد:١٥)

وعرّفه ابن القيّم «تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريبُ المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسَين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر». و قال ابن فارس :» الميم والثاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا، أي نظيره، والمِثل والمثال في معنى واحد».

وعرّفه ابن الأثير «هو اعتبار الشيء بغيره و تمثيله به»، وعُرّف أيضاً أنّه «معرفة الألفاظ الصادرة عن البليغ المشتهرة بين الأقوام بخصوص ألفاظها وهيئاتها وموردها وسبب ورودها و قائلها وزمانها ومكانها»، وعرّفه الغزالي منطقياً «أن يوجد حكمٌ في أمرٍ معيّن واحد، فينقل حكمه إلى أمرٍ معيّن آخر يشابهه بوجه ما»، إلى غير ما هنالك من تعاريف مما يدل على أهمّيته ومكانته. وهي عبارة عن تأليف كلام بليغ موجز معبّر مؤثّر دقيق المعنى، فيه مشابهة ووصف، ذلك أنّ تمثّل شيء بشيءٍ، يقرّب المعقول من المحسوس ويزيده كشفاً ووضوحاً، ويبيّن الغامض، أو كأنّه أصبح مقياساً لغيره.

والمَثَل في القرآن يُفسّر على أربعة وجوه:

١- يعني شبه وصف، فذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ» يعني الأشباه « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي نَصِفُها[١].

٢- يعني السِّير، فذلك قوله في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ﴾ يعني سَير الذين[٢].

٣- يعني عِبرةً، فذلك قوله في الزّخرف: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ يعني عبرة لمن بعدهم[٣].

٤- يعني عذاب، فذلك قولَه في الفرقان: ﴿وَ كُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ يعني وضعنا له العذاب[٤].

ويراد به الحجة كذلك، فقد روي «أن أبا هريرة رضي الله عنه قال لرجل يا ابن أخي إذا حدثتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فلا تضرب له الأمثال، وكان عارضه بقياس من الرأي، فاطلق أبو هريرة على الحجة والإستدلال ضرب الأمثال» هذه الوجوه والمعاني قد تأتي مستقلَّة، وقد يستلزم بعضها الآخر، وحينما يؤتى بالمثل يُقال سأضرِبُ مَثلاً. وقد اختير لفظ الضرب مع المَثَل- كما ذكر في المنار- « لأنه يأتي عند إرادة

١- (العنكبوت:٤٣)

٢- (الآية:٢١٤)

٣- (الآية:٥٦)

٤- (الآية:٣٩)

التأثيـر و هيج الإنفعـال، كأنَّ ضاربُ المَثَل يقرع به أذن السّامع قرعاً ينفـذ أثره إلى قلبه و ينتهي إلى أعماق نفسه».

أهميَّة الأمثال

تُعتبر الأمثـال من الوسائل التربويَّة التوضيحيَّة والتشويقيَّـة، يستعين بها الدُّعاة والمربّون، لأنَّ فيهـا التَّذكيرَ والوعـظ، والنُّصحَ والإرشـادَ، والحضور والظهور، والتصويـر والتأثير، والحثُّ والزَّجر، والفهم والاعتبار.

وهـي كثيراً ما تعبِّر عن أحوال الناس ومعايشِهم وواقعهم، وهي شائعة عند الأمم والشعوب، ولـكلِّ أمـة أمثلتُها الخاصة والمشهورة بهـا وهي من وحي بيئتها ومجتمعهـا، «وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع»

وقـد حوفِظَ على الأمثـال، واعتُنِيَ بها، وكُتِبَت فيهـا الكتُب، و حُميَت مـن التغيير، وقد أكثَر القـرآن منهـا، وهي إحـدى أوجه القرآن الخمسة. فقـد أخرج البيهقي عن أبـي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: «إنَّ القرآن نزل على خمسة أوجه حلال و حرام ومُحكم ومتشابـه وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبـوا الحرام واتّبعوا المُحكم وآمنـوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال».

وقال بعضهم:

«ألا إنما القرآن تسعـةُ أضْرُبٍ سأنبيكَها في بيت شعر بلا خَلل
حـلالٌ حـرام محكـم متشابه بشير نذيـر قِصَةٌ غِلظـة مَثل»

وعـن فضله و ضرورتـه قال الماوردي: «من أعظم علم القرآن علـم أمثاله والنّاس في غفلة عنـه، وعدّه الشافعي ممّا يجب على المجتهـد معرفته من علوم القرآن» وعن ابن عباس رضي الله عنهمـا قال: «كفاك من العلم الأدب أن تـروي الشاهد والمثل»، وعن عبد الله ابنُ عمرو رضي الله عنهما قال: «حفظتُ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ألفَ مَثلٍ».

ووضـع القنوجي له عدَّة أسماء، منها: «علم الأمثـال» و «علم ضروب الأمثال» و «علم معرفة أمثـال القرآن»، وقد أخذت الأمثال مساحةً واسعةً من كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزَّلة، «فالله سبحانه مع عظمته وبالغ حكمته لم يترك المثل ولم يستح منه» وأكثر من ضربه وذكره.

و لـم يخلُ كلام الرسـول صلّى الله على وسلّم منها و هو أفصح العرب لساناً و أكملُهم بياناً، وكل خطيـب وكاتـب و فصيح بحاجة إليها، كمـا ذكر العسكري: «ثم إنّي ما رأيـتُ حاجةَ الشَّريف

إلــى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللَّحــن، كحاجته إلى الشَّاهد والمَثَل، والشذرة والكلمة السائــرة، فإنَّ ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويُكسِبه قبــولاً، ويجعل له قَدْراً في النفوس، وحلاوةً في الصدور، و يدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حِفظه، فينبغي أن يستكثر من أنواعه، لأن الإقلال منهــا كاسمــه إقلال، والتقصير في التماســه قصور، وما كان منه مثلاً سائــراً فمعرفته ألزم،لأن منفعتــه أعمّ، والجهل بــه أقبح، والأمثال من أَجلّ الكلام وأنبَلِه، و أشرفــه وأفضله، لقلَّة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤونتها على المتكلّم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها».

فالمضمون الإنسانــيّ للأمثال يتَّصل بالطبائع البشريَّة، من الفضائل والرذائل، فهي تصوّر المعانــي تصويراً يتطابــق والواقع الذي ورد فيــه المثل، فهي كما قال المــاوردي: «لها من الكلام موقع الأسماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسِل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأنَّ المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضــرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلهــا من دلائل رسله، وأوضح بها الحُجَّة على خَلقه، لأنّها في العقول معقولة، و في القلوب مقبولة».

وقال ابن عبد ربّه: «الأمثال هي وَشي الكلام، وجوهر اللفظ، و حِلي المعاني، والتي تخيَّرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشّعر، وأشرف من الخطابة، ولم يَسِرْ شيءٌ مسيرها، ولا عمَّ عمومَها، حتى قيل: أسير من مثل، وقال الشاعر:

مــا أنــتَ إلا مثــلٌ سائــر يعرفــه الجاهــل والخابــرُ.

وقال الفارابي: «المَثَل ما تراضاه العامَة والخاصَّة في لفظه ومعناه، حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السرّاء والضرّاء، واستدرّوا به الممتنع من الدّرر، ووصلوا به إلى المطالب القصيَّة، وتفرجوا به عن الكُرب والمَكرَبة، وهو مِن أبلغ الحِكمة لأنَّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النَّفاسَة».

فكمــا أنَّ بعضــ الشعــراء حوّلوا النثر إلــى نظم مؤثــر ذي إيقاع و قافية، فكذلــك مَن نطَق بالمَثَل-مــن حكمــاء وغيرهــم- أضفى عليــه معنىً مجــرّداً و مُطلَقاً معبّراً به عــن تجارب الحياة مشخصاً لأحوالها، بارعاً في تصويرها، بأقوى الألفاظ وأجملها.

فالمثَــل مــرآة الحياة تريــك أحوال الأمم وقــد مضت وتَقِفــكُ على أخلاقها و قــد انقضت، فالأمثــال ميزانٌ يوزَن به رقيّ الأمم وانحطاطُها وسعادتها وشقاؤها وأدبها ولغتها، وأكثر ما تكون أمثــال العــرب و حِكَمها موجزةً متضمّنة حكماً مقبولاً أو تجربــة صحيحة تُمليها عليها طِباعُها بلا تكلُّــف». فمــن مرت به تجربة مشابهة لتلك التَّجربة ولم يهتد إلى عبارة يعبّر بها عن حاله، استعار واستعمل ذلك المثل، فأطلقه، وردَّده، معرباً عمّا في نفسه.

تأثيره:

كتب الجرجاني في ذلك كلاماً قيماً جاء فيه: «واعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه أنَّ التَّمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصليَّة إلى صورته، كساها أُبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، و شب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها.

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للإلف، وإن كان حجاجاً كان برهانه أنوَر، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر. وإن كان افتخاراً كان شأوه أمدّ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ. وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلس. وإن كان وعظاً كان أشفى للصَّدر، وأَدعَى إلى الفِكر، وأبلَغ في التنبيه والزَّجر، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل».

ومن استقرأ فنون القول في ذلك، وتتبَّع أبوابه وطُرُقَه، فإنه يدرك قيمة ما تؤدّيه الأمثال، في تمام المعنى ووضوحه، وإظهار المكنون من حسنه و زينته في عدم وجود المثل أو وجوده.

فإن قيل لِمَ كان للتَّمثيل هذا التَّأثير؟ فيجيب الجرجاني: «إنَّ أُنسَ النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليّ، و تأتيها بصريح بعد مكنيّ، و إنْ تُردها في الشيء تُعلِمُها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكَم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يُعلَم بالفِكر إلى ما يُعلَمُ بالاضطرار والطبع، لإن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يَفضُلُ المستفاد من جهة النظر والفكر في القوَّة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام.»

شروطه:

كي يكون المثل زينة الكلام، ويؤتي ثمرتَه، فيجب أن يكون خالياً من أي تعقيد، وأن يُبهِجَ السَّامعَ، وأن يكون واضحاً للمخاطَب، يؤدي معنىً رائعاً في عبارة موجزة سهلة الفهم والحفظ، ولا يشترط في صحّته أن يكون واقعاً تاريخياً، وإنما يشترط إمكان وقوعه حتى يتسنّى للذهن تصوّره كما لو أنه وقع فعلاً، وقد اشتُرط للمثل أربعة شروط:

أحدها: صحّة االتشبيه.

الثاني: أن يكون العلم بها سابقاً، والكل عليها موافقاً.

الثالث: أن يسرع وصولها للفهم، ويعجل تصوّرها في الوهم، من غير ارتباط في استخراجها، ولا كدّ في استنباطها.

والرابـع: أن تناسب حـال السامع، لتكون أبلغ تأثيراً، وأحسن موقعـاً» وقال إبراهيم النظام: «يجتمـع فـي المثل أربعـة لا تجتمع في غيره مـن الكلام، إيجـاز اللفظ، وإصابـة المعنى، وحسن التشبيـه، وجودة الكناية، فهـو نهاية البلاغة، وقال ابن المقفّع: إذا جعـل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث» ويُضفي مزيداً من الإهتمام، ويرسّخ المعلومة.

فوائده:

للأمثال فوائد كثيرة، فهي تبرز دقائق المعاني وترفع الأستار عن الحقائق والانتقال بالذهن مـن المُـدرَك بالعقل إلى المشاهَد، وهـي سهلة الحفظ، تزيّن الكلام، وتـروِّح الخاطر، وتستجمع الحِكم، وتوضحها وتحببها إلى السامع، وهي تقع مواقع الإفهام باللفظ المجمل، وقد ذكر العلماء قديمـاً وحديثاً كثيـراً من تلك الفوائد، قال فـي الكشاف:» ولضرب المثل شـأن ليس بالخفيّ، في إبـراز خبيّات المعاني ورفع الستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم فـي معرض المتيقّـن والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبيّ، ولأمـر ما أكثـر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشـت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكلام الأنبياء والحكماء». وهو مع إيجازه يزيده بياناً، له مفعول الإطناب.

فإذا حدث الإنسان بما لم يشاهده، ولم يعرفه، وكان غريباً عنده، جيء له بمثال من الحس، فيأنس به، ويطمئن إليه، ويدركه ويفهمه، فالأمثال تزيد البيان بيانًا.

الأمثال و اللغة:

وقد أدَّت الأمثال دوراً بارزاً في حفظ اللّغة العربيّة وتقويمِها، إذ تعتبر الأمثال من المصادر الأصيلـة للعربيَّة التي يمكن أنْ نستقي منها، وتلك المصادر هي: (القرآن الكريم والشعر والأمثال والقصـص)، وقـال في خزانـة الأدب: «والأمثال النبويَّـة فهذا يصح الإستشهاد بـه في العربيَّة». فالأمثـال مصدر بالغ الأهميَّة من حيث ارتباطها إجتماعيـاً وأدبياً بحياة العرب، وهي تجري على ألسنتهم مجرى الشعر ولا تقلّ أهميةً عنه، وهي عِظاتٌ بالغة وحِكَمٌ معبرة.

قال أبو عُبيد عنها: «هذا كتاب الأمثال، وهي حكمة العرب في الجاهليَّة والإسلام، وبها كانت تعارضـ كلامهـا فتبلغ بهـا ما حاولت من حاجتها فـي المنطق، بكناية غير تصريـح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ألفَّناها في كتابنا هذا على منازلهـا وأسنَدناها إلى علمائها، واستشهدنا بنـوادر الشعر عليها وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتـاب وحثنا عليه ما روينا من الأحاديـث المأثورة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قد ضربها وتمثّـل بها هو ومن بعدَه من السلَف» وما انفكّت الأمثال فـي الناس سائرة. والعرب تزيّن أشعارها وأقوالها وآدابها بالأمثال والحِكَم المميّزة، والأمثال عندهم نوعان:

١- أمثــال حِكميّة، كقولهم الجار قبل الدار، والحرب خدعــة، والخطأ زادُ العَجول، والعتاب قبل العقاب، ونحوهما مما يتناقله الناس.

٢- الأمثــال المبنيّــة على الحوادث وهي خاصة بهم لأن الحوادث جــرت لهم كقولهم « وافقَ شــنٌّ طبَقَــه» و «قطعت جهيزة قول كل خطيب» و «الصَّيف ضيعــتِ اللبنَ» و «سبقَ السيفُ العزل» وهم يؤثِرون تلك الأمثال عن قائليها وقد يروون عشرات من الأمثال قالها الواحد فــي حادثة واحدة، فهذه الأمثال تنفرد عند العرب بــأن لكلِّ مثل قصَّته الخاصة به، فهو نابع من صميم الحياة وواقعها، ناجم عن حادثة معيّنة، بكلمة أو كلمات معدودة، حفِظَتها الذاكرة ، وكُتِبَ لها الإنتشار.

أنواع الأمثال:

إذا كانت الأمثال تُنبّه الذهن إلى أخذ العِبرة وقياس حالٍ على حالٍ، فهي ليست نوعاً واحداً، بل منها الصريح والضِمنيّ، وقد ذكر السيوطي في الإتقان ثلاثة أنواع هي:

١- الأمثــال المصرّحة: وهي ظاهرة صُرّح فيها بلفظ المَثَل، وهي كثيرة في القرآن الكريم، كقولــه تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِيْ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّٰه بِنُوْرِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِيْ ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُوْنَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُوْنَ﴾[1].

ففــي هــذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلاً: نارياً، فحظُّهم مــن الوحي بمنزلة من استوقد نــاراً للإضاءة والنفــع حيث انتفعوا ظاهراً بالإسلام، ولكن لم يكن له أثر نوريّ في قلوبهم، فذهب الله بنورهم بما في النار من الإضاءة وأبقى ما فيها من الإحراق.

٢- الأمثــال الكامنة: وهي التي لم يُصرَّح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معانٍ رائعة في إيجــاز، ويمَثِّلــون لهذا النوع بأمثلــة منها: ما معنى قولهم (خير الأمور الوســط) وقوله تعالى: ﴿لاَّ فَارِضٌ وَ لاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾[2]

وما معنى قولهم (كما تدينُ تُدان) قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يُجْزَ بِهٖ﴾ [3]..إلخ.

٣-الأمثــال المُرسلــة: وهــي جُمَــل أُرسِلَــت إرســالاً مــن غيــر تصريــح بلفــظ التشبيــه، فهــي آيــات جاريــة مجــرى الأمثــال، كقولــه تعالــى: ﴿لَيْسَــ لَهَــا مِــنْ دُوْنِ اللّٰهِ كَاشِفَــة﴾[4]

١- (البقرة:١٧-١٨)

٢- (البقرة: ٦٨)

٣- (النساء:١٢٣)

٤- (النَّجم: ٥٨)

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾[1]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[2] ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3]، ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾[4]

آداب الأمثال:

يجب اجتناب أمثال العامَّة الغوغاء، إذ ربما ألِفَ المتخصص مثلاً عاماً سيئاً، لكثرة ما يسمعه من مخالطة أصحاب السوء، فيسترسل في ضربه مثلاً، فهناك أمثال مرذولة ومشهورة وهي انعكاس لأحوال المتَمثلين بها، فتُذكَرُ للأخيار من الناس، وهي شائعةٌ وتُستعمل بكثرةٍ، منها: «أذكُرِ الديب وهيئ القضيب»، «الشقي عمرو بقي».. إلخ. ويكاد يكون لكل منطقة أمثلتها الخاصة بها، وقد حُكِي في هذا عن الأصمعي: أن الرشيد سأله يوماً عن أنساب بعض العرب فقال: على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين. فقال له الفضل بن الربيع: أسقطَ الله جنبيك، أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب! فكان الفضل مع قلّة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاورة الخلفاء، من الأصمعي الذي هو واحدُ عصره و قريعُ دهره»

لهذا لا يجوز تعدّي أمثلة القرآن الكريم، حيث أنكر على الحريري قولُه في مقامته الخامسة عشرة «فأدخلني بيتاً أحرَج من التابوت، وأوهى من بيت العنكبوت» فأي معنى أبلغ من معنى أكّده الله من ستة أوجه، حيث قال: ﴿و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾[5] فأدخل: إنَّ، وبنى أفعَل التفضيل، وبناه من الوهن، وأضافه إلى الجمع، وعرَّفَ الجمع باللام، و أتى في خبر إن باللام، وكان اللائق بالحريري ألا يتجاوز هذه المبالغة وما بعد تمثيل الله تمثيل، وقَولُ الله أقوَمُ قيل، وأوضحُ سبيل»

وقد يُستدلُّ بالمثل أو يُستشهدُ به في غير مكانه فيسبِّبُ ضرراً لصاحبه. يُروى أنَّ عمرَ بن عبدِ العزيز - رحمه الله- قال لرجلٍ أنظُر لنا كاتباً يكون أبوه عربياً، فقال كاتبٌ له قد كان أبو النبيّ كافراً فقال جعل هذا مثلاً فعزله وقال لا تكتب لي أبداً»

فالكاتب قصدَ بكلامه الإحتجاج والإستدلال على نفي النقص عنه، وقد قال عمر-رضي الله عنه-في الرد عليه أنه جعله مثلاً، فعلم أنّ المستدل لا منافاة بينه وبين ضارب المثل. فقال مسكويه مجيباً: «إن الأمثال فيما لا تدركه الحواس مما تدركه، والسبب في ذلك أُنسُنا بالحواس،

١- (الأنعام: ٦٧)

٢- (الإسراء: ٨٤)

٣- (المؤمنون: ٥٣)

٤- (المائدة: ١٠٠)

٥- (العنكبوت:٤١)

وألفنا لها منذ أول كونها، ولأنها مبادئ علومنا، ومنها ترتقي إلى غيرها، فإذا أبصَرَ الإنسان عالمٌ يدركه، أو حُدث عالم لم يشهده، وكان غريباً عنده، طلب له مثالاً من الحس، فإذا أُعطي ذلك أنس بها، وسكن إليه لألفة له.

خصائص الأمثال:

ومن خصائص الأمثال أنها لا تتغيّر، بل تُلفظ و تجري كما جاءت على الألسنة، وإن خالفت قواعد النحو والتصريف، وتظل على هيئتها التي صيغت عليها، وقد عبّر سيبويه عن ذلك فقال: «ومن كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضع على غيرحاله في سائر الكلام»

وعبّر السيوطي «العرب تُجري الأمثال على ما جاءت، ولا تستعمل فيها الإعراب» فقد جاء في أمثال العرب (أعطِ القوسَ باريْها) بتسكين الياء في باريها، والأصل فتحها، لأنها مفعول ثانٍ لـ أعطِ.

وفي أمثالهم (اجناؤها ابناؤها) أي جناتها بُناتها، (قال أبو عُبَيد : الإجناء: هم الجناة، والأبناء: البُناة والواحد جانٍ و بانٍ، وهذا جمع عزيز في الكلام، ومعنى المثل: إنَّ الذين جنَوا على هذه الدار بالهدم هم الذين عمَّروها بالبناء) ومعنى ذلك (أن المثل لا يُغيَّر وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون في سائر الكلام) فهُم يترخصون في المثل كما يترخصون بالضرورة الشعريَّة.

للأمثال أهميَّة كبيرة، فهي لا بدّ منها للعالِم المجتهد، والقارئ المُعتبر، والخطيب البارع، والداعية الناجح، فما المانع أن يكون عِلماً مستقلاً له موضوعه الخاص كـ بقية العلوم الأخرى، ولو في بعض سنوات المراحل التعليميَّة، سواءً الإعداديَّة، أو الثانويَّة، أو الجامعيَّة، وقد اعتبره الماورديّ من أعظم علوم القرآن والناس في غفلة عنه، وعدّه الشافعيّ مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن، وقد أفرده بالتأليف عدد كبير من العلماء، قديماً وحديثاً، سواء في ذلك أمثال القرآن، كما فعل ابن القيّم في كتابه إعلام الموقعين، وأمثال الحديث للقاضي الرامهرمزي، والأمثال والحِكم للماوردي، وعقد الترمذي باباً في جامعه أورد فيه أربعين حديثاً من الأمثال، وعلق عليه ابن العربيّ:

«لله درّه، لقد فتح باباً، وبنى قصراً أو داراً، ولكنّه اختطّ خطاً صغيراً، فنحن نقنع به، ونشكر عليه».

والذي نراه من الضروريّ وضع منهاج خاص بمادة الأمثال، يتلاءم والمرحلة المقرّرة فيه إعداديّة أو ثانويّة، وهو لا يقلّ أهميّة عن منهج التفسير المقرّر في بعض الجامعات الإسلاميّة، (كـ تفسير آيات الأحكام)، الموزّع على عدد السنوات الدراسية الجامعية، فالحد الادنى أن يُقرَّر ولو في سنة جامعية واحدة، مادة للأمثال، بإشراف الهيئة العلميَّة، كشأن أيّ مادة أخرى. يكونُ

مصدرهـا وموضوعهـا، أمثال القرآن، وأمثال الحديـث، والأمثال السائرة، تُصـاغ صياغة مرتّبة ومبوّبة ومُحكَمة وفي هذا الخير الكثير.

و نختم بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1]. وهي تحثّ و ترغّـب وتدعو للتعلّم والتعقّـل والتدبّر والتّبيان، و أورد ابن كثير عن عمرو بن مرة قال: ما مررتُ بآيـة من كتـاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعـتُ الله تعالى يقول: ﴿وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

١- (العنكبوت: ٤٣)